الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرياس عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٦٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٦٣ — الثلاثاء ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٣ — ١١ من يناير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

مطالعات أشتات :

روزفلت
قبل الأربعين

للدكتور أحمد زكي بك

المعروف الشائع عند الناس أن سن الأربعين هي السن التي يكتمل فيها الجسم ، ويستتم فيها العقل ، وتزدهر عندها في الحياة الآمال . لا تلك الآمال الصغيرة التي تكون والحياة صغيرة ، ولكن تلك التي تكون كبيرة ، وقوة الحياة الدافقة في أشدها ، والقوة العاقلة في عنفوانها ، والقلب الجياش في فورانه .

تصوَّرْ نفسك وقد بلغتَ هذه السن ، أو طلعت على مشرَف قريب منها . ثم تصوَّرْ أنك في كنف هذه السن تستمرئ العيش ، وتحس دفء الحياة حتى يكاد يكون الدفء اصطلاء ، وتحسه في ماضٍ سعيد ذي جاه وذي ثراء ، وتحسه في حاضر تدل بشائره على مستقبل بالنجاح أملأ ، وبالعمل أزخر . ثم تصوَّرْ أنك ذهبت يوما إلى فراشك تستجم من برد أصابك ، ثم أخذتَ تحرك يسرى رجليك فأبتْ عليك الحركة ، ثم أخذتَ بعد قليل تحرك يمناها فأبتْ عليك الحركة ، ثم استطلعت رأى الطبيب استطلاع موجس لهفان ، فقال لك إنه الشلل ،

وإنه « لشلل الأطفال » ، وإنه داءٌ عياءٌ لا حيلة فيه للأطباء إلا أن يشاء الله ، وقليلاً ما يشاء . فكم يبقى عندك وعندى بعد هذه من الحياة ودفعها ، وإلى أى شىء كان يتطاول بنا الأمل ؟ إلى السكون إلى بقية من العيش نستنفدها فى ركن هادئ من أركان الدنيا لا يكاد يرانا فيه أحد ، ولا يكاد يسمع بنا فيه أحد ، ولا نحب أن ترانا فيه عين ناظر ، أو تحس بوجودنا فيه أذنُ سامع ، حتى من ذوى القربى الأقربين ؟ أم ترانا يتطاول بنا الأمل إلى معترك الدنيا ، إلى حيث موج الحياة أعتى وأصخب ، نطلب ، لا السيادة فى قرية ، ولا السيادة فى مدينة ، ولكن نطلب السيادة فى أمة ، وفى أمةٍ من أمم الأرض العظيمة ؟

لقد اختار روزفلت ، لما أكل عند باب الأربعين ... ، وأصابه عندها من عنت الأقدار ما أصابه ، اختار معتركَ الحياة الأصخب . واختار ... الأسكن ، فأبى عليها . لقد أبى أن ... فكان هذا له أول نصر مبين . وكان نصراً فى ميدان النفس ، وهو أصعب الميادين ارتيادا ، وأخفاها خَنَدقا . والنصر فيه يهون عليه من بعده انتصارٌ يرومه فى ميدان سياسة أو ميدان مال ، أو فى ميدان حرب ونزال . وبهذا النصر الأول ، بهذا النجح الأول ، تابع صاحبنا نجحه فى الحياة حتى صار منها إلى ما نعرف : ثالثَ ثلاثة فى أيديهم زمام هذه الكرة من بعد الله ، إذا شئتَ أىُّ هؤلاء الثلاثة أعظم ، وأيهم أحزم ، وأيهم أعلى كعبا وأرفع نجما ، لم تدرِ كيف تجيب .

وُلد فرنكلينْ رُوزفلت Franklin Roosevelt فى الثلاثين من يناير عام ١٨٨٢ ، فهو مستتمٌّ عامَه الثانى والستين هذا الشهر . وكان أبوه جيمس روزفلت مزارعا ذا ثراء ، وأنجبه أبوه من زوجة له ثانية . ونشأ فى حجر هذا البيت ، فى حضن الريف ، وعلى النهر ، نهر هدسُن ، فتعلم على الأرض ركوب الخيل ، وتعلم على الماء قيادة السفن . ونشأ فى غير مدرسة ، فقد علمه فى البيت أبوه وعلمته أمه . وجرى مع والده فى الريف الطلق فتعلم من الطبيعة الخيّرة ، وشرب من أفاويقها . وكان وحيد أبيه ، فوجد بعض أنسه عند الجيران ، فلعب مع أطفالهم ، ومعهم درس اللغات وما تعلّمه المدرسة من علوم .

وبلغ عامه الخامس عشر ، فبعث به أبوه إلى مدرسة خاصة من خير المدارس ، مدرسة جروتُن Groton . وفى هذه المدرسة دخلت فى نفسه الريبة ، أولَ ما دخلتْ ، من هؤلاء النفر من ذوى الثراء الذين يطلبون لنفسهم ... مركزا بين الناس ممتازا ، يكسبونه على الأكثر بالترفع عن العشرة ، والتحاجز عن الكافة . وفى ... نامية شغفه بالماء ، وقيادة السفن من ... ، وجمع ... كثيرة من السفن وأساطيل البحار ، صارت له من بعد ذلك مجموعة من خيرة المجاميع فى هذا الموضوع ، كان من أثرها فى حياته المستقبلة ما كان . وقامت الحرب بين الولايات المتحدة وأسبانيا وهو فى هذه المدرسة ، فتركها يطلب أن يلتحق بأسطول الولايات بحّارا ، ولكنّ الحصبة أصابته عندئذ فارتدّ بهما على أعقابه .

وبلغ الثامنة عشرة فى عام ١٩٠٠ ، فذهب إلى الجامعة الشهيرة جامعة هارڤرْد Harvard . فأظهر بها ذكاء ممتازاً ، ولكن قلّة صبر التحصيل . وهو إن لم يبلغ فيها مبلغ الطالب الذى يصل بالدرس ليله بنهاره ، فقد تفتّق فيها ذهنه ، واتسع أفقه ، وغذّته بالمُثُل الطيبة فيها أساتذته . ووقع له فى هذه الجامعة ما وقع فى تلك المدرسة : اشمئزازٌ صارخ من جمعيات تلك الجامعة ، فهى جماعات

طلبت الترفع عن الناس والتحاجز عنهم . ورأى فى ذلك الترفع غروراً ، ورأى فيه كذباً . واختير عضواً فى هذه الجمعيات فلم يمنعه ذلك من إعلان سخطه . وقاد الحملة عليها . وقد كان له أن يستمتع بما يستمتع الأعضاء منها ، ولكنه لم يكن به استمتاع بغرور ولا إقرار لأحد بمكانة كاذبة .

وما جاء عام ١٩٠٤ حتى كان روزفلت قد انتقل من جامعة هارفرد إلى مدرسة الحقوق بجامعة كولومبيا . وفى عام ١٩٠٥ بدأ عمله فى القانون ، فالتحق بشركة المحاماة فى مدينة نيويورك .

وفى هذا العام ، عام ١٩٠٥ ، وهو فى الثالثة والعشرين ، وهو أملأ ما يكون حياة ، وأكثر ما يكون جمال وجولة ، وأبسم ما يكون ثغراً ، تزوج زوجته التى كان لها فى حياته ، وفى حياة الولايات من بعد ذلك دور غير قليل . وكانت هذه الزوجة إليانور روزفلت ولم تكن بابنة عمه وإن أوهم اسمها ذلك ، ولكنها كانت من بنات أعمامه البعيدين . وكان عمها عند ذلك رئيس الولايات المتحدة ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt وهو الذى حضر إلى مصر من بعد ذلك ، وإليه وجه شاعرنا شوقى حديثه فى قصيدته « أنس الوجود » ، حيث قال :

أيها المنتحى بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحاول من آية الدهر غضا

وكان ثيودور روزفلت جمهورياً . وكان فرنكلن روزفلت عند ذلك ديمقراطى الميل ، ثم كان ديمقراطى المنهج من بعد ذلك ، فقد باعدت المذاهب بينهما كما باعدت الأرحام .

وحضر ثيودور الزفاف بالطبع ، فقد كان وصى الزوجة ومُسْلِمها فى الحفل إلى زوجها . وكان حفلا أرستقراطياً من الأحفال النادرة . وقد أكسب الرئيس الحفل وجاهة ، ولكنه استأثر بأنظار الناس . ودخل الرئيس إلى مكتبة الدار فتجمهر حوله الناس يستمعون له . وخلا المكان بالزوجين حيث كانا ، فلم يكن لهما بدّ إلا اتباع الجمهور ، فذهبا إلى المكتبة مع الذاهبين ، ووقفا عند حافة الجمع يستمعان فى المستمعين .

ويجىء عام ١٩١٠ ، فينفتح لصاحبنا بابُ السياسة أول انفتاح . خلا مقعد فى مجلس شيوخ ولاية نيويورك . وكان يشغل هذا المقعد شيخ جمهورى . وأراد الديمقراطيون أن يشغله ديمقراطى . فبحثوا عن رجل يجمع إلى أصالة الاسم وجاهة الثراء ، فوقعوا على فرنكلن روزفلت . وكان فى الثامنة والعشرين . فانتهز هذه الفرصة يحقق بها أول مذاق . وطاف بالولاية مطاف ... وطافها فى سيارة . وكانت سيارات هذا العصر — ويعلم هذا من حضر منا هذا العصر فى مصر — سيارات لا تكاد تسير حتى تقف ، ولا تكاد تبدأ حتى تنتهى . فكان روزفلت كلما وقفت سيارته للإصلاح ، انتهزها فرصة لخطبة الناس . وفاز بالمقعد .

ولكنه لم يلبث أن خيب رأى الحزب فيه . فقد كانت مجالس الشيوخ بالولايات تختار لمجلس شيوخ الدولة شيوخه . وكان الحزب الديمقراطى قد اختار رجلا لمجلس شيوخ الدولة لم يكن ممن ترتاح له كل الضمائر . فرفض روزفلت قبوله . وتزعم حركة تدعو إلى رفضه . واستشاط الحزب غضباً ، وهددت آلته ميرس من يتصدى لحركتها ، ولكن روزفلت صمد ، وصمد له أصدقاء له فى الحزب . وانتصر وانتصروا أخيراً . فاختار الحزب رجلا أليق بالمقعد وأولى .

ولم يكن روزفلت في هذا على حزبه متجنيا . فقد أعلن في البدء لمختاريه أنه لن يرتبط برأي فرد ولا آلة حزب ، كائنا ما كان ، ما خالف ذلك رأيه .

وبعد عام فتهيأ الأحزاب للصراع على رآسة الولايات المتحدة . ويتخذ الديمقراطيون ولسن — الدكتور وُدْرُو ولسن Woodrow Wilson ، الرجلَ الأكاديمي ، أستاذ الجامعة ، ورئيسَ جامعة برنستُن — يتخذونه مرشحاً لهذه الرآسة . ويشترك روزفلت في الصراع ديمقراطياً . ويجاهد في هذا ذا رحمه الأبعد ، تيودورَ روزفلت ، رئيسَ الولايات الأسبق ، فقد كان تنصّب مرشحاً جمهورياً . ثم يخفق تيودور ، ويفوز ولسن في الصراع ، ويفوز فرنكلن روزفلت بمنصب في وزارة حبيبة إلى قلبه من أيام صباه . ذلك منصب سكرتير مساعد في وزارة البحرية .

كان هذا عام ١٩١٣ . وكان روزفلت في الحادية والثلاثين من عمره .

وتأتي الحرب العالمية الأولى ، حرب عام ١٩١٤ ، وتأخذ تقترب من شواطئ الولايات كما اقتربت هذه الحرب الحاضرة . ويأخذ روزفلت الشاب يُوجس من اقترابها خيفة ، كما أوجس خيفة من مثله في هذه الحرب الحاضرة . ويحاول أن يقنع رئيسه رئيس الدولة ، ولسن ، بالتوسع في الأسطول ، والاستعداد قبل الفوات . ولم يقنع ولسن إلا بعد أن كثُر من نابه الشر ، ولم يعدْ بدٌّ من الحرب مفرٌّ . وعندها أنفق روزفلت جهده في إعداد الأسطول للنزال . ودخلت أمريكا الحرب ولم يكد يستتم من ذلك بعض ما اعتزم . ولا شك أن كانت له في هذه التجربة الأولى ، في تلك الحرب الأولى ، خيرُ معوان لتجربته هذه الثانية ، في هذه الحرب الثانية ، والموقف واحد ، والعدوّ واحد ، وله مكانَ ولسن ولاَسنةٌ كثيرة .

وفي الحرب زار أوروبا ، وزار انجلترا ، واتصل برجال السياسة حيثما ذهب . وجاءت الهدنة ، وجاء السلم ، فرادَه عمله فيهما اتصالاً بالرجال . وعاد ولسُن إلى الولايات ، ومعه روزفلت ، وعصبةُ الأمم . وبدأ ولسن حملته للفكرة العصبة ، وحملها معه روزفلت ، فخابا جميعا . وجاء ميعاد الانتخاب لرآسة الجمهورية ، فنصّب الديمقراطيون روزفلت وكيلاً للرئيس . وبنى روزفلت وبنى الديمقراطيون حملتهم على أساس العصبة ، وأساس اتخاذها نظاما عالميا يحدد علاقات ما بين الأمم على أصول من التسامح ابتدعها هذا الديمقراطي الأكاديمي ، أستاذ الجامعة ، وخاب فيها ، وخُدِع كما خُدِع أبو موسى الأشعري ، قبل أن تطأ قدماه ساحل الولايات عند عودته . وخاب روزفلت في هذا الانتخاب ، وخاب الديمقراطيون .

وصنع روزفلت بعد ذلك ما يصنعه كل عاقل : انتحى جانبا ليترك للعهد الجديد أن يجرّب حظه من جديد . وعاد إلى [illegible] القانون .

كان هذا عام ١٩٢٠ .

وجاء عام ١٩٢١ فذكّره أمر الله بهذا النازلة الجثمانية التي صدّرنا بها هذا الحديث . وكان في التاسعة والثلاثين . وحاطتْه أمه ، وحاطته زوجته بالرعاية . وضربا حوله هذا الجوّ الذي لا يضرب غير الخلصاء ، إذا سقط الساقط العزيز ، ليخففوا وقع السقطة ، وليصلوا ذلك الحبل الذي انقطع أو كاد بالحياة . وانضم إلى الزوجة والأم صديقٌ صدوق — لويس هاوى Louis Howie — وجعل من واجبه إدامة الصلة بين صديقه والحياة العامة . ومضى عام ، وثانٍ ، وثالثٌ ، والحركة في رجليه تأبى أن تعود ، ولكنه ظل باسما مستبشرا

أحمد زكي

ملحوظة :
في العدد القادم : « روزفلت بعد الأربعين »

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر:

٤ – مدحت باشا

هذه الباخرة «عز الدين» تمخر البحر لتقذف به في ثغر من ثغور أوروبا ، وقد ضاعت كل آماله ! فكل ما جزّ من تقدير في الثورة ونتائجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضي عليه في لحظة ، وزال من الوجود في لمحة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ؛ وكل ما في يده الآن غضب السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله ، وتجرّده من ماله .

لو أن أي إنسان عادي آخر مكانه لمل الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تجني جزاء ظلم سلاطينها ، وانتظر حتى ينشق عنظر الفساد بهذه [illegible] نصح فلم ينتصحوا ، وأنذر فلم ينصتوا [illegible] صدق ما تنبأ ، وحدوث ما أنذر .

ولكن لم يكن مدحت في شيء من هذا ، فما مرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكر من جديد في وسائل إصلاح ما كان ، وعجب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن لا يُبرأ منه » .

فكر سريعا ، ووصل إلى النتيجة سريعا ، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرّارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس الجند ، والدول كلها تتنبأ بنصرتها ، فواجبه — إذن — أن يؤلّب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبين لكل منها الأضرار التي تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطتها . فهو في أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بآرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض ، ويُبرق إلى اللايتي ويقول : « قد سعيت مدة إقامتي في عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أني وفقت إلى ذلك بعض التوفيق » . ثم يذهب إلى فينا لهذا الغرض ويبرق فيقول : « أنا اليوم في (فينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعي ... وآمل إخباري عما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيتي الوحيدة ، وقد وقفت حياتي لتخليص الدولة من ورطتها ، وأنا قادر على القيام بأعباء ما يطلب مني ، ومصلحة الوطن تضطرني إلى ذلك » .

وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردّ عليه بأنه ليس مفوّضا ، ولا له صفة رسمية يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلا منفيا ، فطلب من الدولة تصحيح موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعا !

وأغرب ما في الأمر بعد ذلك أن زفّ إليه « ناظر التشريفات » بشرى أن السلطان ذكره بحضرته ، وسأل عنه [illegible] فقال « ناظر التشريفات » : إنه في حالة بؤس يتنقل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقرض ، فظهرت رقة قلب السلطان وبكى ، وقال أرسلوا له ألف ليرة ! ثم يختتم الخطاب بأن يطلب منه شكر السلطان ، وتضرعه إليه بالعفو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذلته ، متملقة كملقه ؛ ولكن هذا الخطاب وقع من نفس مدحت الأبية موقع السهم المسموم في الفؤاد الجريح فهاج وثار ، وردّ عليه فقال :

« لقد عبرتم للسلطان عن حالي بأنها حال بؤس يتنقل من بلد إلى بلد ، تستدرون بذلك شفقته ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أخلاق ، لا رجل مثلي عمل ما عمل وتولى الصدارة بجدارة

وأنا كما وصفتم من أسباب عيشي وفقري ، فقد اقترضت عشرة آلاف فرنك من خرستاكي في نابولي فنفدت ، وأنا اليوم أسعى في قرض جديد أسد به رمقي ورمق

أسرتى فى الآستانة؛ ولكنى لحور بذلك، فقد ولدت عارى الجسد، وسأموت عارى الجسد، وأنا ابن الحاج أشرف أفندى ونعم النسب، ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله، وذخيرتى أنى عاهدته أن لا أقول إلا الحق، ولو أوصلنى إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد.

وما الذى فعلت من إجرام حتى أطلب العفو؟ لقد سعيت فى تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز، فلما مرض سعيت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد، وكان جلوسه مقرونا بإعلان الدستور، ووضع خطط الإصلاح.

« ومنذ خروجى من الآستانة وأنا أفكر فى الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك، ولا أفكر فى نفسى، فماذا فى هذا مما يعتذر منه؟ »

« لقد بلغت السادسة والخمسين، ولا أمل لى فى الحياة؛ لم يتجاوز أسلافى الستين، فأيامى معدودة وكل ما أرجوه أن أعيش منفردا، وأدعو لولى النعم الأعظم ».

هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به [illegible] تعبير عن قوة مدحت وعظمته و[illegible]

لقد وصف « ناظر التشريفات » [illegible]
بأنه كالعروس عطلت من حليها، وعريت من ثيابها، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلا؟ وفى الحق أن هناك عيونا لا ترى الجمال الحق فى الإباء والشمم، وإنما ترى الجمال المتصنع فى النفاق والملق.

كان يوما يصطاف فى الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز، وإذا بسفير الدولة العثمانية فى إنجلترا يقابله؛ ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة « كريد »، فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين، ثم عين واليا لسورية، ثم لأزمير، ثم كانت مأساته التى ختمت بها حياته كما سنبينه بعد.

* * *

هذا هو العمود الفقرى فى حياة مدحت، وله بجانب هذا أعمال فرعية فى الولايات التى تولاها، وهى أعمال خالدة لا تزال تذكر من أهل البلاد التى عمل فيها بالحمد والثناء.

لقد ولى العراق، وولى سلانيك، وولى الشام، وولى أزمير؛ وكان له فى كل أولئك خطة واحدة، يعمد — أولا — إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم، فإذا الأمن شامل والهدوء عام. ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم فى أمورها، ويجرئهم على قول الحق فى صراحة، ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة، لأن ذلك يعين على الإسراع فى ضبط أمورها؛ ثم يضع الخطط لاستغلال منابع الثروة فى البلاد على خير وجه، كل ولاية بما يناسبها حتى تزيد ناتجها على نفقاتها، ويأخذ من المال الناتج فى إنشاء المدارس ونشر التعليم، وهو بعمله هذا يضع نواة [illegible] فى بلاد فشا فيها الجهل وكادت تعم الأمية.

[illegible] سنة ١٢٨٥ هـ — سنة ١٨٧٠ م فى عهد [illegible] أخضع رؤساء العشائر بعد عنادها، وروع العصاة وطاردهم فى أوكارهم، ثم أصلح أداة الحكومة، فأقبل الزراع على زراعتهم، والعمال والصناع على عملهم وصناعتهم، وأنشأ أول مطبعة فى بغداد، وشجع على إنشاء جريدة سماها « الزوراء »؛ وحث الشركات على العمل: فشركة تسير البواخر بين بغداد والبصرة، وشركة تسير الترام بين بغداد والكاظمية؛ وقرب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة، وبث المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية، وأنشأ متنزها عاما فى بغداد سماه « بستان الأمة » « ميلت باغجه سى ».

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجف » كنوزاً مدفونة، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تزين بها الأضرحة والمشاهد قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور، فأخرجها مدحت، وقومها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدى

بثمنها بين النجف وإيران (لأنه كان قد اشترك فى التبرع بها كثير من الفرس) ، فلم يوافقه العلماء على ذلك فبطل المشروع . كذلك من طرائفه أنه ألّف مجلساً للشورى فى بغداد يرجع إليه فى أمور الولاية ، ولم تكن الناس تألف الجهر بالرأى والشجاعة فى القول ، ولا تعدّ لهم بجانب الوالى شخصية ، فجمعهم يوما وقال لهم : إنى أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالى فى زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون ؟ قالوا جميعاً موافقون ، هـذا هو الرأى ، وعين الحكمة ؛ فـكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم ؛ ثم جمعهم فى اليـوم الثانى وقال : لقد فـكرت فى أمر زيادة الضرائب فتراءى لى أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس ، ولـكن محضر أمس أرسل ، فإذا رأيتم هذا الرأى صوابا كتبنا آخر ألحقناه به ، وبيّنا الأسباب الموجبة لنقضه ، فقالوا : نِعْمَ الرأى ما رأيت ! ووقعوا على الثانى كما وقعوا على الأول . فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيده وقال : والله ما أرسلته ولـكن أردت أن أعرّفكم قيمة المجلس إذا رجعتم دائما إلى رأيى وحدى ؟! ثم أعطاهم درسا قاسيا فى الحرية وفوائدها ، والشخصية وتكوينها ، والاستقلال فى الرأى ومزاياه .

وكانت ولايته للشام أصعب ، فقـد تولاها فى العهد الحميدى بعد حوادثه مع عبد العزيز واتهامه بالجمهورية ، وعداء السلطان والمابين والوزراء له ، كلهم يتربص به الدوائر . ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق ، فهذه مشاكلها بدو وعشائر ، وعلاقته بإيران ونحو ذلك ؛ أما مشاكل الشام فأخطر : أمور لبنان تتصل بفرنسا ، وأمور الدروز تتصل بإنجلترا ؛ ولـكل دولة مصالح ومدارس وكنائس ، وغير ذلك . فـكان أول ما لفت نظره ما ذكر من « أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ... ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن ، فـكنت أفكر فى أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا » .

فشكّل الجمعيات ، وجمع الإعانات ، وفتح المدارس ، وأصلح المساجد وجعلها مدارس ، ووضع عقوبة لولى أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة ، واستعان بأموال الأوقاف فى أمور التعليم ، وتأسست فى عهده « جمعية المقاصد الخيرية » وانتشرت شعبها فى البلاد .

ولـما حاول الإصلاح الاقتصادى والإدارى اصطدم بالدول ، فـكانت فرنسا صاحبة امتياز لبنان ، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام ، فـكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فغضبت فرنسا ؛ وهكذا وهكذا من مشاكل ، والدسائس تحاك حوله ، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسوريا ، ويستدل على ذلك بأن هاتفا هتف « فليحى مدحت باشا » ، وأن كاتبا كتب « الخديوى مدحت » . ولذلك لم يتمكن من الإصلاح فى الشام كما تمكن منه فى العراق ، مما لاقى من العناء فى الداخل والخارج . فيالله للمصلحين !

... نقل إلى أزمير ، فلم يطل بها مقامه حتى [illegible]

فلما حصل الذى من وفاة السـلطان عبد العزيز تحركت المسألة من جديد ، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه . وبلغ مدحت وهو فى أزمير أنه يراد القبض عليه والتحقيق معه ، وكتب إليه صديق له « فاخرج إنى لك من الناصحين » . وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوروبيين ركوب باخرة معدة وسفره إلى الخارج فرفض وقال : « كيف أرتكب الفرار الجريمة لا تسبب لها من الصحة » .

وبينا هو نائم فى داره إذا بالجنود تحيط به ، ويقبض عليه ويرسل إلى الآستانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك فى قتل عبد العزيز .

من عهد أن تولى السـلطان عبد الحميد ، وهو لا يأمن جانب مدحت ، ومن لف لفّه ، ويخشى جد الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز ؛ وبلغت به الخشية حد الهوس ، فـكل قوى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر مسخرة للمحافظة على شخصه ، ومراقبة مدحت وأمثاله ،

لأن من قدر على البدء، كان أقدر على الإعادة . وأخيراً اعتدى هو وأعوانه القضاء على مدحت وأصحابه بهذه التهمة ، فدُبِّرت محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ، ورسمت خطة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام ، فتوسط الإنجليز وبعض سفراء الدول فاستبدل بالإعدام النفي ، ووضعوا في باخرة سارت بهم إلى جدة ومنها إلى الطائف . وأهينوا من يوم خروجهم من الآستانة بالتضييق عليهم في مأكلهم وملبسهم ومنامهم . وسجنوا في قلعة الطائف ثلاث سنين ، وأجرى عليهم العذاب ألواناً ، وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء ، زادوهم تضييقاً حتى يموتوا . ومن اشتد من الضباط عليهم رقي ، ومن أخذته الشفقة عليهم أبعد . ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالا يقتات به ، ويبذل كثيراً من الحيل في إيصالها إليهم ، فيذا أرسلوه لم يصل إليه . وثمانية من سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من « شوربة » مصنوعة من الماء وورق البصل في الصباح ومثله في المساء ، ويعدون حياتهم يوماً فيوماً فلا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعاً فقرروا أن يسموهم ، ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنقه فخنق . وكان آخر ما كتب إلى أهله كتاباً جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن .

فقد أخذوا منا الأقلام والدواة والورق ، وضيقوا علينا الخناق ، وقصدوا تسميمنا واحداً بعد واحد ، ولكن ظهرت نيتهم . .

ولا بد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي فلا تحزنوا . وأنا أرجو من الله المغفرة فقد مت فداء الوطن ، وأستودعكم الخالق الباقي » .

* * *

قضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعي ، يختار من المدنية الحديثة أحسن ما وصلت إليه من تنظيم الحكم على أساس الشورى التي تتفق وتعاليم الإسلام ، ويأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد ، ويراعي في ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الاختصاص ، فيعجل ما أمكن ، ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويحوّر ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه ، ويلتذ من العذاب يصيبه في هذه السبيل لأنه ربطه بعقيدته الدينية ؛ فالدين في نظره ليس صلاة وصوماً فقط ، ولكنه مع ذلك عمل الخير لشعبه ، ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها ، وتكون تحى من يقف عقبة في سبيل تقدمها — ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئناً مستبشراً ، وهو في منفاه يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة ، يقول لأهله في بعض كتبه : إني أقرأ القرآن وأستعيد حفظه ، وأستعذب تكرار آية « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدّها أكبر عزاء لي ، وأهزأ بما أسمع من هجاء وافتراء ، فقد فوضت كل أموري إلى الله . إن الحياة محدودة وهي كالموت محتمة بتقدير ربنا ، ولنا أسوة في الأنبياء والأولياء الذين قتلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوّن بعض مذكراته .

* * *

وقد خدمت أفكارَه شناعةُ وفاته أكثر مما خدمها جهاده في حياته ، فقد ألبت النفوس الخيرة مما أصابه ألماً ممضاً ، وتأججت النار في أفئدتهم ، وأفئدة من يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما ألهبت النيران ألهبت عبد الحميد كما ألهبت من قبلُ عبد العزيز ؛ بل لعلها أيضاً هي التي ألهبت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

* * *

والآن ننتقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال الدين الأفغاني ، فإلى اللقاء ؟

أحمد أمين

لي لذة في ذلتي . . .

لخلود الآثار أسباب وثيقة ، ولتخليدها دواع قوية ، وقد يكون الأثر وسطاً أو دوناً في حقيقته ، فإذا تهيأ له سبب من أسباب الخلود ، وداع من دواعي التخليد ، اجتمعت فيه قوتان تكفلان له بالعلو والغلو ، فيكون غير نفسه بالأمس ، ويرتفع ثمنه منذ اليوم الجديد على ثمنه القديم ، وهذا أمر مشهود أبداً ، ملحوظ في أكثر الأشياء ؛ وقديماً قال قائلهم : « والتبر كالترب ملقى في أماكنه » ، و « اللؤلؤ الرطب في الأصداف كالحجر » ، و « العود في أرضه نوع من الحطب » . هذا في الأشياء المستعملة التي يفنيها الاستعمال أو ينقص قيمتها الإغلال ؛ أما الآثار المعنوية كالحكم والفلسفة والشعر والنثر الأدبي وفنون الأدب الأخرى ، فهي التي تزكو على مر العصور ، وتغلو مع كر العصور ، ولا تخلو [illegible] من فترات يعمها التنازع في [illegible] والتنافس في الاستقلال ، فكأن سنة بقاء الأصلح ، وطبيعة دوام الأملح ، باقية أخرى الليالي وأبد الأبيد . والأثر الخالد هو الذي استجمعت فيه أكثر أسباب الكمال النسبي أولاً أو آخراً ، أصلاً أو اكتساباً . وموضوعنا في هذه الكلمة المكتوبة « الشعر » فإنه يقل ثمنه وينخفض ويرتفع ، ويضيع ويشيع ، وينحط ويعلو ، بحسب الأسباب الناجحة له التي تعتمد على الزمان وأهله ، والأهواء الأدبية والأطوار اللغوية . ومن أسباب كمال الشعر التي ذكرها قدماء الأدباء ، أن تكون « ألفاظه متخيرة ، ومعانيه منتخبة ، وألفاظه عذبة ، ومخارجه سهلة ، وديباجته كريمة ، وطبع ناظمه متمكناً ، وسبكه جيداً ، وأن يكون له ماء ورونق[1] » ؛ ولكن هذا القياس غير مطرد ، وذلك النظر غير لازم ، فإن للكمال أسباباً لا تفنى ، ودواعي لا تحصى ولا يحاط بها ؛ قال الأديب الكاتب أبو الحسن علي بن الحسين الأثير المعروف بابن أخت المصفري من معاصري أبي إسحاق الصابي : « فلو ترك الناس أغراضهم من النظم والنثر ، والجد والهزل ، اعتماداً على السابقين الأولين لمات[1] الخواطر ، وسقطت الهمم ، ولكن لكل جديد لذة ، ولكل حديث بهجة ، كما أن كل قديم يسأم . . . فأنت إذا تأملت شعر امرئ القيس وجدته قد سبق إلى كل معنى نادر ، وذهب بكل فضل باهر ، ولم يترك لذي بقية مجالاً يشق فيه غباره ، ومقالاً يبلغ به شأوه ؛ ولا نرى اليوم[2] أكسد من ديوان شعره بالعراق ، وقد صارت الرغبة كلها في ديوان أبي فراس والصنوبري وكشاجم وأشباههم من شعراء الوقت[3] » . فالجدة ، عند الكاتب هذا ، كانت سبباً في إقبال الناس على شعراء [illegible] فهل من الأدباء اليوم من لا يعرف [illegible] « لي لذة في ذلتي وخضوعي » ؟ وهل كان سبب معرفة الأدباء لها كونها جديدة ؟ ليس الأمر بذاك ، وإن ادعاه مدع فليس هناك ؛ لأن الذي رفع ثمن هذه الأبيات ، وردها إلى الحياة ، وأولع بها الشيوخ والفتيان والفتيات ، هو التغني بصوت مغنية عربية بارعة ماهرة مجيدة نادرة ، فذلك الذي خلد هذه الأبيات الوسط ، ورفعها من هوة الجمود إلى قمة الخلود . ومن سعادة الشعراء أن يغنى شعرهم ، فإن التغني بالشعر يزيد ثمنه الأدبي « عشرين مرة » لا عشر مرات ، ولذلك يكون من الصعب أن يقايس بين شعر غني به وشعر

(١) الجاحظ في البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٥ ٥ .

(١) كذا ورد باللام والفصيح من دونها ، وهو لغة القرآن الكريم . (٢) في القرن الرابع للهجرة .

(٣) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٦ ص ٤٣ ، نقلاً من كتاب « المجموع اللطيف » لأمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله الأفطسي قاضي القضاة .

آخر لم يلبس حُلَّة الفناء ، ولا نُفخ فيه رُوح الغناء . وصاحبُ « لي لذة في ذلتي وخضوعي » من السعداء إذن ، لأن الله قد هيأ له سبباً جيلاً لتخليد شعره ، ولكنّ كثيراً من الناس لا يعرفون صاحبه — أعني صاحب الشعر — فمن الواجب الأدبي الذي قبلنا لمثله من العلماء والأدباء ، أن نذيع ترجمته بين الناس فنقول :

هو شاعر بغداديّ اسمه « أبو الحسن سعد الله بن نصر — وقيل نصر الله بن سعد بن عليّ بن الدجاجي » ، ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه[1] ، وجمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي[2] ، وقاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الكناني في تعليقة الشعراء المنشدين[3] ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات[4] وابن شاكر الكتبي[5] وغير هؤلاء المؤرخين[6] . ولد ببغداد بالحلبة الشرقيّ منها سنة ٤٨٢ أو سنة ٤٨٠ ، وبها نشأ وتأدب ، وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن [illegible] الوعظ والتذكير ، وقرأ القرآن الكريم بالروايات على [illegible] زمانه ببغداد الشيخ أبي منصور محمد بن أحمد [illegible] وقرأ أيضاً على الرئيس أبي الخطاب علي بن عبد الرحمن بن الجراح ، وسمع الحديث منهما ومن أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني فقيه الحنابلة في عصره ، ومن غيرهم ؛ وروى فيما رواه مسند الإمام ابن حنبل ؛ ووعظ ببغداد سنين كثيرة ، وأقرأ الناس القرآن المجيد ، وحدّث بالأحاديث النبوية . قال جمال الدين الدبيثي في تاريخه : « قرأتُ على أبي الفضل محمد بن أبي نصر المقرئ ، قلتُ له : أخبركم أبو الحسن سعد الله بن الدجاجيّ — قراءة عليه — وأنت تسمع ، فأقرّ به (وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود) قال قال رسول الله (ص) : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي بإبراهيم — عليه السلام — فقال : يا محمد ! أقرئْ أمتكَ مني السلامَ وأخبرْهُم أنّ الجنّةَ طيبة التربة ، عذبةُ الماء ، وأنَّها قيعانٌ وأغراسها قولُ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله » . وكان لطيفَ الكلام حلوَ الإيراد مُلازماً المطالعة إلى آخر حياته ، وله شعر جيد بالغ فيه الصفدي فعده من الطبقة الأولى ، ومنه الأبيات التي استوجبت هذا البحث :

لي لذةٌ في ذلتي وخضوعي
وأحبُّ بين يديكَ سفكَ دموعي
وتفرشُ في رأي عينكَ راحة
لي من هوى قد كنّ بين ضلوعي
[illegible] في شرع الهوى
عارٌ ولا جورُ الهوى ببديع
عيني أساءتْ فأين عفوكَ سيّدي
عمّن رجاكَ لقلبه الوجيع
جدْ بالرضا من عطف لطفكَ وأغنه
بجمال وجهك من سؤال شفيع

ومن شعره وقد عاتبني فيه :

بلكم مهجتي بيعاً وقسدرة
فأنتم اليوم أغلالي وأغلى لي
علوتُ فخراً ولكني ضنيتُ هوًى
لحبكم هو إعلالي وأعلى لي
أوصى لي البيْنُ أن أشقى بحبكم
فقطّع البين أوصالي وأوصى لي

وأين هذه الأبيات التي قبحتها عثاثة الجناس وركاكة الاقتباس من تلك الأبيات ؟! على علمنا باستحالة القياس .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ١٠ ص ٢٢٨ .
(٢) ذيل تاريخ بغداد ، أصول الأدب والتاريخ ج ٢٠ ص ١٢٤ . (٣) ذلك المرجع ، ج ٥ ص ١٣٤ .
(٤) ب ، ج ١١ ص ٥٠ . (٥) فوات الوفيات ، ج ١ ص ١٦٧ . (٦) كشيخ الإسلام أبي سعد السمعاني في تاريخ بغداد ، ومثل الحافظ أبي العباس عمر بن أبي الحسن القرشي الدمشقي في تاريخه

قال قاضي القضاة عز الدين بن جماعة الكناني : « وكان من أعيان الفقهاء والفضلاء ، وشيوخ الوعظ النبلاء ، وكان يخالط الصوفية ويحضر معهم سماع الغناء على عادتهم » . وقال ابن الدبيثي : « انتقل إلى الجانب الغربي (من بغداد) قبل وفاته وسكن باب البصرة إلى أن مات » . وقال أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الدمشقي : « وتوفي سنة أربع وستين وخمسمائة ودفن قبل ذلك اليوم » . وقال أبو الفرج الجوزي : « توفي في شعبان من هذه السنة (٥٦٤ هـ) ودفن إلى جانب رباط الزوزني في إرضاء[1] الصوفية ، لأنه أقام عندهم مدة حياته ؛ فبقي على هذا خمسة أيام ، وما زال الحنابلة يلومون ويكرهون هذا ويقولون : مثل هذا الرجل الحنبلي أي شيء يصنع عند الصوفية ؟ فنبشه بعد خمسة أيام بالليل وقال : كان قد أوصى أن يدفن عند والديه . ودفنه عندهما » . ومن أخباره الطريفة أنه سئل في مجلس وعظه من أهل المنفلت [illegible] من التعرض لها وأمر بالتسليم ، وأنشد :

أبى القائب الغضبان يا نفس أن ترضى
وأنت التي صيرت طاعته فرضا
فلا تهجري من لا تطيقين هجره
وإن هم بالهجران خديك والأرضا

وقال : كنت خائفاً من الخليفة لحادث نزل ، فاختفيت فرأيت في المنام كأني في غرفة ، فجاء رجل فوقف بإزائي وقال اكتب :

إدفع بصبرك حادث الأيام
وترج لطف الواحد العلام
لا تيأسن وإن تضايق كربها
ورماك ريب صروفها بسهام
فله تعالى بين ذلك فرجة
تخفى على الأبصار والأوهام

كم من نجا من بين أطراف القنا
وفريسة سلمت من الضرغام ؟

قال مصطفى جواد الكاتب لهذا : وترك أبو الحسن الدجاجي ابنا له ذكر في تاريخ العلماء ، ولعله ترك غيره . وروى عنه جماعة من العلماء ؛ وممن روى عنه مسند الإمام أحمد بن حنبل العلامة محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني عالم الشيعة في زمانه ، فقد ذكر في أول كتابه « مناقب آل أبي طالب » ، وأثبت أنه روى الكتاب المذكور مع الفضائل عنه ؛ ولكن اسمه تصحف على طابع الكتاب وهذا نصه : « إسناد مسند أحمد عن أبي سعد بن عبد الله الدجاجي عن ... »[1] والصحيح « عن أبي الحسن سعد الله الدجاجي » ، ونقله العلامة المجلسي مصحفاً ولم يصلحه ولا أصلحه طابع كتابه[2] ، وقد بين الصحيح أبي حيان ، والله الموفق لصواب القول .

(بغداد) **مصطفى جواد**

(١) [illegible] طالب ج ١ ص ٦ من طبعة النجف .
(٢) [illegible] ج ١ ص ٢٢ .

(١) أي إرضاءاً لهم .

وظائف الدولة

قرأت في «الثقافة» مقالا عن تدخل الدولة يقول كاتبه إنه راجع تاريخ الهند والصين واليونان في العصور القديمة، فوجد أن تدخل الدولة في حياة تلك الأمم أدى إلى انحطاطها، ولكنني لا أعرف في تاريخ تلك البلاد أنه قد قامت بها في العصور القديمة حكومات موحدة، وأنه قد كان هناك تدخل من تلك الحكومات. وأنا أترك جانبا الهند والصين، فتاريخ تلك البلاد القديم لا نعرفه لا أنا ولا غيري على نحو يمكننا من الحكم على علاقة الدولة بالفرد؛ وأما اليونان فأنا أعلم أنه لم يكن بها قديما غير مدن كأثينا وإسبرطة وطيبة، وكانت كل مدينة تكون دولة، وفي أهم تلك المدن وهي أثينا كان الشعب هو الدولة؛ فالشعب كان الحاكم لنفسه المتدخل في أمر نفسه، وكان في هذا مجد أثينا وقوتها لا ضعفها وانحلالها.

وأما القرون الوسطى فأمرها معروف، [illegible] النظام الإقطاعي لم تكن هناك دول، وإذن فلست أفهم كيف تدخلت تلك الدول التي لم توجد في حياة الشعوب؟! وإنما الذي نعرفه هو أن «اتحادات المهن» هي التي وجدت وتحكمت في الأفراد.

بقيت العصور الحديثة، ومن الغريب أن يقول الكاتب إنه لم يجد «مؤلفا ولا مشرعا ولا كاتبا» دعا إلى تدخل الدولة بصراحة. وأنا طالما كنت أتمنى أن أكون المجلي في هذا الميدان، ولكنني لسوء الحظ قد سُبقت إليه، سبقني إليه عشرات بل مئات من كبار المفكرين. سبقني شفليه، ولويس بلان، وكورنو، ورودبرتس، ولاسال وفاجنر؛ وكثيرون غيرهم ممن يجدهم الكاتب الفاضل في جميع الكتب التي تتحدث عن تاريخ المذاهب السياسية والاقتصادية[1].

وأنا بعد لست بحاجة إلى أن ألفت النظر إلى ما في الآراء المتقدمة من خطر، وليس أقتل لنهضتنا الحالية من النقل عن الأوربيين في غير فهم واضح لاعتبارات التاريخ والبيئة. فما قاله جوستاف ليبون عن سر تقدم الإنجليز السكسونيين وتخلف الشعوب اللاتينية كلام قديم قلما تجد في أوروبا اليوم من يؤمن به؛ فالزمن قد تغير، وجميع الدول تسير الآن راضية أو كارهة نحو التدخل في كافة مرافق الحياة. حتى الإنجليز أنفسهم في سبيل العدول عن مبدأ الحرية، حتى لنستطيع أن نقول إن حزب الأحرار قد مات في انجلترا حيث ولد، وإن نظريات سمث وريكاردو وغيرهما قد دخلت في حكم التاريخ. ثم إننا غير تلك الدول: تاريخنا غير تاريخهم، وتربيتنا غير تربيتهم، وأخلاقنا غير أخلاقهم؛ وليس الأمر أمر مناقشات نظرية وتعميمات لا حق لنا [illegible] الأمر أمر حقائق واقعية.

وإنه وإن يكن من المفهوم أن المجلات كالثقافة أو غيرها ليست منابر للتدريس، إلا أنني مع ذلك سأحاول إيضاح معنى تدخل الدولة في حدوده وغاياته لسبب واحد، هو أننا قد أوشكنا أن نبدأ في صياغة برامج لأحزابنا تستند إلى أصول عامة في الحكم، ولعله يكون من واجبنا وواجب غيرنا من المشتغلين بالمسائل العقلية أن يوضحوا السبل ويحذروا من الأخطاء، حتى لا تفسد الغرائز والشهوات الفطرية حياتنا العامة.

مبدأ تدخل الدولة لم يعرف إلا في النصف الأخير من

(١) يستطيع حضرة الكاتب أن يراجع على الأقل الكتاب الذي يستخدمه جميع طلبة الحقوق بفرنسا ومصر وعنوانه (تاريخ المذاهب الاقتصادية) Histoire des doctrines économiques par Ch. Gide et Ch. Rist حيث يجد من صفحة ١٨٥ إلى صفحة ٤٣٥ فصلا ضافيا عن (اشتراكية الدولة) التي أساسها تدخل الدولة.

القرن التاسع عشر ، وقد كان ظهوره كرد فعل لمذهب الحرية في الحياة الاقتصادية . ولكي نخرج من الجدل النظري الذي اشتبك فيه أنصار وخصوم كل من المذهبين ، دعنا ننظر في بساطة إلى وظائف الدولة لنحدد موضع الخصومة .

هناك وظائف ثلاث لا ينازع أحد في وجوب نهوض الدولة بها وهي : (١) الأمن الذي يحققه البوليس والخفراء ، (٢) سلامة الوطن التي يحميها الجيش (٣) تطبيق القوانين بإشراف القضاء .

ولكن هذه الوظائف ليست كل شيء في حياة الأمة ، فثمة الحياة الثقافية التي ينهض بها التعليم ، والحياة الاجتماعية بما تتبع من إقامة التوازن بين الطبقات المختلفة ورعاية حقوق كل طبقة ، وأخيراً الحياة الاقتصادية من إنتاج وتداول واستهلاك .

فأما الحياة الثقافية ، فلست أدري من الذي يستطيع أن يدعو الحكومة المصرية إلى عدم التدخل [illegible] لا تنحط الأمة ؟! يقول الكاتب إن الجامعات في إنجلترا من عمل الشعب . قد يكون . ولكن ماذا يريد أن نعمل في مصر ؟ هل ندعو حكومتنا إلى أن ترد جامعة فؤاد إلى حالتها الأولى لتظل جامعة أهلية ؟ هل نطالبها بإغلاق جامعة فاروق لتترك الشعب يفتحها متى شاء ؟ ولقد استشهد الكاتب برأى لفؤاد باشا سراج الدين عن وجوب نهوض الشعب بحركة التعاون . فإنما يجب على الشعب أن يكوّن تلك الجمعيات ؛ ولكني أنا نرى أن فؤاد باشا شديد الاهتمام بقانون التعاون وبنك التعاون ، وبتنظيم التعاون ، وبمجلة التعاون التي يحاجنا الكاتب بآرائها ؟! وما معنى كل هذا ، أليس هو تدخل الدولة الذي سيفتتي إليه الحكومة ؟! ثم أو ما نرى أن الحكومة الحاضرة سياستها كلها تقوم على التدخل في كافة مرافق حياتنا التي أصابها ركود الإهمال الحكومي ؟ والتعليم بنوع خاص ، ألسنا نرى الدولة تهم بأن تتدخل فيما يفزعنا أن تتدخل فيه . لقد اعتزمت دولتنا أن توجه الأجيال القادمة إلى ميادين النشاط المختلفة التي يصلحون لها ، فمنهم من سيوجه إلى مدرسة ثانوية صناعية أو تجارية أو زراعية أو نظرية ؛ وهذه خطوة شهدتُ الكتاب والسياسيين بل الأفراد العاديين يقتتلون حولها في فرنسا أيام الوزارة الاشتراكية وزارة ليون بلوم ، التي لم تجرؤ أن تجعل «التوجيه المهني» إجباريا مكتفية بجعله مجرد نصيحة تسدى للأولاد والآباء . وإذا كنا قد وصلنا من التدخل في التعليم إلى هذه الدرجة فهل يأتي اليوم أحدنا فيقول إن أحد وزرائنا يحث الشعب على العمل ، وبذلك تكون سياستنا الآن عدم التدخل ؟! هذا فهم غريب وقصر في ملاحظة التيارات العامة في سياستنا ، فسياسة حكومتنا القائمة كلها سياسة تدخل ، وهي تذهب في هذا إلى حدود لا نقرها وربما ناقشناها في غير هذا المقام . أما في إنجلترا أو أمريكا ؛ ففي البلاد الأولى إذا علمنا أن وزارة المعارف لم تنشأ إلا سنة ١٨٩٩ فليس معنى هذا أنهم لم تكن هناك هيئات حكومية تشرف على التعليم العام ؛ وكذلك الأمر في البلاد الثانية فليست هناك وزارة المعارف لأنهم تركوا التعليم لاختصاص السلطات المحلية في كل ولاية . ثم مالنا وإنجلترا أو أمريكا . لنكن في بلادنا . ماهي حالتنا وكيف نقوّم الفاسد فيها ؟ أنتركه للشعب أم ندعو الحكومة إلى العمل ؟ هل نترك الشعب يمحو الأمية وينشر التعليم المهني ويؤسس الجامعات ؟ أي عاقل يقول هذا القول !

وفي الحياة الاجتماعية نرى أن مصر يبلغ فيها الظلم الاجتماعي حداً كبيراً ، وما أنا بحاجة إلى أن أثير القارئ بوصف حالات الفقر وحالات الثراء التي نلاحظ جميعاً ما بينها من تفاوت مؤلم ؛ وإذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لإنصاف الطبقات المظلومة ، أنأتي نحن اليوم ونقول

للدولة تحذو بمبدأ الحرية ، مبدأ سمث وريكاردو ودعى الفرد يعمل والتجارة تمر ؟! لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانيها كثير من الشعوب ، ورأيت القوى كان قويا بنفسه ولكنه قوى بالوراثة ؛ فصاحب رأس المال يستغل العامل ، والمالك يستغل الفلاح ، والناشر يستغل الكاتب ، وليس لهؤلاء إلا أن تحميهم الدولة . لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمال ، وهذا هو التدخل ؛ واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى ، وهذا هو التدخل ؛ وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعامل ، وهذا هو التدخل . والدولة بعد لم تعد حاكما مستبدا بل أداة تنفيذ لإرادة الأمة . ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته إذا أدركته الشيخوخة ، أو العاهة أو البطالة ، أنترك ذلك للشعب ؟ عجيب هذا المنطق ، منطق يكذبه الواقع ويكذبه العقل السليم .

فى النشاط الاقتصادى ، وهنا ندع الحركة ، ولكن فريق حججه التى تستحق النظر ، فأصحاب الديمقراطية الحرة يرون أن النقمة الشخصية هى أهم عامل للنجاح فى الحياة الاقتصادية ، والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز ، وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمى فى نفسه روح البدء والقدرة على تحمل المسئوليات حتى يترقى تلك التربية الاستقلالية التى أشار إليها الكاتب ، ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة ، وهناك مصلحة الأمة ومصالح الأفراد الآخرين ، فإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر ، من يوفق بين هذه المصالح إن لم تكن الدولة ؟ انظر مثلا إلى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين ؟ ثم من قال إن المصلحة المباشرة إذا انعدمت فشل كل مشروع اقتصادى . أو ما ترى إلى الشركات المساهمة كيف يديرها عضو منتدب بمكافأة ، ويصل بها إلى ذروة النجاح ؟ بل أو ما ترى إلى جمعيات يديرها رئيس لا يكسب منها شيئا يذكر ومع ذلك نجحت أى نجاح ! فكر مثلا فى لجنة التأليف . وأبعد من ذلك دلالة الجمعيات الخيرية ، وها هنا إلى جوارى مستشفى المواساة الذى تفاخر به الإسكندرية مدن أوروبا الكبرى . أو ما تعلم أن الذى بناه رجل خير طيب الله ثراه كان وكيلا بالجمرك بالإسكندرية ؟! وبقيت حجة أخيرة ، تقول إن الأفراد أو الشركات أقدر على الإدارة من موظفى الدولة ، ولكن ها هى السكة الحديدية فى مصر ، وها هى شركات النقل ؛ من يستطيع أن يزعم أن شركات النقل أنجح من السكة الحديدية عندنا ؟

والآن فلننظر إلى أحوالنا الداخلية . لدينا ثروات معدنية ، وأراض يمكن أن تستصلح ، وقوى كهربائية يمكن أن تولد ، ومشروعات عامة من ترع وطرق ومصارف وما إليها ، أفنترك كل ذلك للشعب وننتظر حتى ينهض بها ؟!

وهل نسينا مأساة كهربة مساقط أسوان ؟

وبعد كل ذلك نرى من يفكرون فى الهواء ، فيقولون : لا ؛ إن دعوة الدولة إلى التدخل معناه عدم ثقتنا كأفراد بأنفسنا ؛ معناه أننا ضعاف ، وما إلى ذلك من كلام فارغ ، وأفرغ منه ما يخاف به البعض من حرية الفرد ؛ كأننا فى بلاد يحمى حرية الفرد فيها شىء يذكر ! لقد قلت فى مقالى الذى ينقده الكاتب إن من واجب الدولة أن تحمى الفرد من الدولة ذاتها بأحد أمرين ، فإما أن تعطى القضاء العادى حق حمايته من الحكومة حماية فعالة ، وإما أن تنشئ قضاء إداريا يختص بتلك الحماية ، لأننا كما هو معلوم لا نملك الآن هذه الحماية ولا تلك .

لقد حان الحين لأن نصحو إلى الواقع الذى يحوطنا ، وكفى تخبطا فى نظريات غريبة لا نجيد فهمها .

محمد مندور

فى حضرة أبى العلاء

فى ليل العاشر من تشرين الثانى دق جرس الهاتف ، فتناولت السماعة فإذا المستشرق الهندسى المسيو إيكوشار يحدثنى من بيروت ، ويطلب إلى أن أهيئ نفسى إلى السفر إلى المعرة للإشراف على بناء ضريح أبى العلاء الذى كاد أن يتم ، ولقراءة الكتابات الحجرية التى عثر عليها فى القبور الثلاثة التى وجدت إلى جانب قبر أبى العلاء ؛ فهيأت نفسى .

وفى صباح اليوم الثانى فى الساعة الرابعة توجهنا إلى المعرة ، فكان الجو بارداً والسماء ممطرة . تركنا دمشق فما وصلنا حمص حتى أشرقت الشمس وصحا الجو ، فتركنا مدينة حمص إلى حماه ، ومنها إلى المعرة ، فرأينا البناء قد تم ؛ وعوننا محمد المهندس إيكوشار فيه إلى إحياء الفن الإسلامى القديم ، فجعل الضريح مدرسة لها مسجدها ومكتبتها وأروقتها . وإنك إذا ما دخلتها توهمت أنك داخل إلى مدرسة من مدارس العصر الأيوبى : صحن واسع ، فيه حديقة حسنة التنسيق فى جنوبه إيوان لطيف ، تحته يقوم القبر ، وإلى جانبى القبر بابان يؤديان إلى مسجد ضخم ، فى جانبه الأيمن غرفتان وفى جانبه الأيسر مكتبة ضخمة . ومن وراء المسجد صحن فيه القبور الثلاثة المكتشفة ، أحدها قبر مجهول ، وثانيها قبر امرأة ماتت سنة اثنين وأربعين وستمائة ، وثالثها قبر أحمد بن إسماعيل بن سليمان التنوخى سنة ٧٦٠ ، وحول هذه القبور الثلاثة كتابات كوفية (من آية الكرسى) بارعة جداً .

أما قبر أبى العلاء نفسه فقبر ساذج ضخم ، له شاهدة واحدة كتب عليها بالكوفى المشجر (قبر أبى العلاء ابن عبد الله بن سليمان) ، وقد أتى الزمان على كلمتى (قبر وأبى) ؛ وعلى ظهر هذه الشاهدة ما نصه : «رحمة الله عليه» . وليس على القبر تاريخ ، ولكن طرز بناء القبر والكتابة يؤكدان لنا أن القبر لم يحدث فيه أى تغيير منذ القرن الخامس للهجرة .

وكان ضروريا أن يحفر العمال قبر أبى العلاء ليعيدوا بناءه من جديد ، فحفروه وكشفوا عن اللحد ، وأقبلت أريد النزول فهيبت أول الأمر ، وتخيلت الشيخ الجليل فيه ؛ ثم تشجعت ونزلت ، فوجدت البناء مهدوماً ، وليس فى اللحد أثر من جمجمة أو عظم أو عجب ذنب . ثم أعاد العمال بناء اللحد كما كان ، وأعادوا القبر حيث كان تماماً . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فقفلنا راجعين إلى دمشق ووصلناها فى منتصف الليل ، فدخلت غرفة نومى وخلعت ثيابى ، وقعدت على فراشى أحاول النوم بعد ذلك النهار المتعب الشاق ، الذى قضينا نصفه فى السيارة تقطع بنا ثمانين أو تسعين كيلو متراً فى الساعة ، ونصفه فى حل الحجارة ، وتصوير القبور ، وما إلى ذلك . وعبثاً حاولت أن أجتلب النوم المستعصى ، وبينا أنا كذلك إذا بى أرى الشيخ الجليل ماثلا أمامى ، فحييته ورددت عليه التحية ، وكان إلى جانبه طائفة من الناس عرفت أسماء بعضهم ، كالأستاذ المرحوم بدر الدين النعسانى ، والأستاذ سليم الجندى ، والمرحوم أحمد تيمور باشا ، والدكتور طه حسين بك ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ عبد العزيز الراجكوتى . وكأن أبا العلاء أحس أنى لم أعرف بقية صحبه ، فقال : أما هذا الشيخ الذى إلى يمينى فهو أبو طاهر السلفى الحافظ الفيلسوف التبريزى ، وأما الثانى فهو مواطنك كمال الدين بن العديم الحلبى ، وأما الثالث فهو أبو منصور عبد الله بن سعيد الطائى . وأما هذا الذى إلى يسارى فهو الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن هاشم ناسخى وكاتبى وملازمى ، لم يتركنى منذ أن انزويت فى بيتى سنة ٤٠٠ للتأليف والإملاء ، فأمليت عليه أكثر كتبى ، فتولى نسخها وإتقانها أحسن الله معونته ، وألزمنى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث

الزمن والأرزاء . فقلت : يا سيدي الشيخ أنا والله سعيد بهذه الزيارة فكيف أنت ؟ قال : على أحسن حال ، وأجود بال ، بارك الله فيك وفي الذي بذلت وتبذل أنت وجماعتك في بناء ضريحي ومدرستي ، ولولا أن جزاء المرء على نيته لما سمعت مني كلمة الشكر هذه ؛ فمن قال لك إني أميل إلى رفع الأضرحة وإشادة العمائر على قبور الأموات ؟ فتقدم الدكتور طه حسين وقال : إنهم يا سيدي يقومون ببعض حقك ، وكم كنا نلوم إخواننا الشاميين على تقصيرهم في القيام بهذا الواجب ، ولهم منا الآن أفضل الشكر على أن أتموا ما شرعوا ؛ وأنا أرجو أن يكون يوم الذكرى الألفية يوماً فخماً يليق بمقام الشيخ ويجدد ذكراه الطيبة . فقال الشيخ : جزاك خيراً ربك يا طه ! فأنت تأبى إلا الكمال من كل نواحيك ، وما أنس فلن أنسى أنك أول من أحيا ذكرى في هذا القرن المشرق ، فكتبت عني ما كتبت ، ودفعك حبك الشديد إلى الغلو ، ولقيت في ذلك من بعض معاصريك نقداً وعنتاً ، ولكنك كنت تسير قدماً ، ولا تحفل بما قالوا . فلك أنت شكري لا لأنك أحييت ذكرى ، فأنا أزهد الناس فيه ، بل لأنك كشفت لأبناء عصرك الغطاء عن بعض آرائي في الحياة ، فلعلهم يستهدون بهديها . ثم التفت إلى الأستاذ سليم الجندي فقال : وأنت يا سليم لقد قضيت شطراً كبيراً من عمرك في الكتابة عني ، ولي عندك طلب أرجو أن توفق إليه ؛ ذلك أني أفرح الناس بتخصيص جناح من مدرستي ليكون مكتبة يفيد منها أبناء المعرة وزوارها ، فاسع يا بن المعرة في تنمية هذه المكتبة فهي أفضل شيء في هذا المشروع . فقال الجندي : سمعاً للشيخ وتلبية . وبينما كان الشيخ يتحدث والأستاذ الجندي والدكتور طه كنت أفكر في سؤال الشيخ عما كتب هؤلاء الأساتذة فيه ، وعن رأيه في كل ما كتبوا . فلما أتم حديثه قلت : أريد أن أسأل الشيخ الجليل أسئلة فلعله يجيبني عنها ، فقال : هات . قلت :

ما رأيك فيما كتب هؤلاء السادة المحيطون بك . فقال : سؤال محرج وليتك سألتني عنه وهم غائبون ، فأنا والله شاكر لهم ما بذلوه ، على أن في كل كتاب هفوة أو هفوات ، وما كنت أحب أن أنقد كتبهم في محضرهم ، ولكني رجل كنت قوالاً للحق صداعاً به ، وسأكون ذلك الرجل . أما أستاذك وصديق النعساني فهو من الناس القليلين الذين فهموا شعري ، واعتنقوا مذهبي ، وهو على قلة ما كتب عني من أفضل رجال هذا القرن فهماً لشعري وأدق ، ولعله هو الوحيد من بين الذين كتبوا عني وآمنوا بما كتبوا ، واتخذوه دستوراً لهم في الحياة ، فإن آراءه في الدين والحياة والمرأة آرائي . وسكت الشيخ ، فقال بدر الدين الحمد لله الذي حقق ظني ، فقد كنت أتوهم أني أخطأت فهم بعض آرائك ، ولا أخفيك أني يوم كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة سألت ربي أن يجمعني بك فور انتقالي إلى الدار الآخرة ، وها أنا ذا [illegible] بآرائك واطمأننت سررت سروراً لا مزيد عليه [illegible] بكلماتك هذه . فقلت : وأنا يا سيدي بدر الدين ، ما أفضل للناس من أصدقائك وأعدائك كلمات الشيخ فيك وفي أدبك . فقال : لا لا يا أسعد ، لا تفعل ذلك فإن هؤلاء الناس لا يساوون عندي جناح بعوضة ، وما كنت أحفل بهم في حياتي وأنا الآن أكثر عزوفاً عنهم ، وعن تقديرهم وإعجابهم . ثم أخذ الحديث شيخ المعرة فقال : أما الجندي سليم ، فقد دافع عن إيماني ، وأعاد وأبدأ وكتب عني كتابه الضخم الذي قضى فيه زهرة عمره ، وقد اطلعت على كل ما كتب فأنا له شاكر ، وكم كنت أود ألا يقضي فترة طويلة في الدفاع عن عقيدتي وإيماني ، وليترك الطاعنين فيّ يطعنون ويقولون ما يشاءون ، فليس لقولهم وزن ولا لآرائهم قيمة ، وليته وهو اللغوي المتين انصرف إلى شرح اللزوميات شرحاً يكشف عن غوامضها لدى طلاب علم هذا الجيل . فقال الجندي : أنا باذل وسعي في

تلبية طلب الشيخ أعزه الله . ثم التفت الشيخ إلى تيمور باشا فقال : وهذا رجل كان يستطيع أن يعمل كثيراً ، ولكن الأجل عاجله ! وكتابه الذي كتب عني على ما فيه من فوائد لغوية وتاريخية كثيرة قليل الترتيب ، سيء التأليف ، أخذ نفسه بأشياء ليس لها كبير غناء ، وهو كزميله الجندي أطال القول في ديني ، وما كان أغناهما عن ذلك . ثم التفت إلى تيمور باشا فقال : نحن في عالم لا يراءى فيه ولا يمارى فقال تيمور باشا : أعوذ بالله من أن أشك في صواب نظر الشيخ وحسن رأيه ، وله أعزه الله ملء الحرية في أن يقول ما يشاء ويحكم بما يريد . ثم التفت الشيخ إلى طه بك فقال : أما ما كتب طه في كتابه ، فأنا راض عنه كل الرضا ، وشاكر له كل الشكر ، وفخور به كل الفخر ، فهو الذي صحح أوهام المستشرقين ، وفند ضلالاتهم في أقوالهم فيّ . وهو الذي أخرج للناس بقالب يفهمه أبناء هذا العصر كل فلسفتي وآرائي ، وإن كنت آخذ عليه في هذا شيئاً فأنا آخذ بعض مبالغاته وجعله من كلامي ما لم أقصده ، ولكنه في ذلك مجتهد بارع له ثوابه وشكره ؛ وإن أنسى مداعباتك إياه في الكتاب الذي أسميته «مع أبي العلاء في سجنه» ؛ وإن غفرت لك كل غريبة قلتها فيه ، فلا أغفر لك قولك : «قد نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبي إن ظننا أن شعر اللزوميات جيد كله من هذه الناحية الفنية الخالصة ، بل نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبي إن ظننا أن كثرة هذا الشعر جيد ، وإنما الحق أن الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن أن يستخلص في مجلد نحيف يجمع إلى الجمال الفني خلاصة للفلسفة العلائية كلها» . وهناك كلمات أخرى لك في كتابك هذا لا أحب أن أناقشك الحساب عليها ، وأرجو أن يتسع لي الوقت لذلك في فرصة أخرى .

وأما الأستاذ العقاد فقد راقني أسلوب كتابه ، وأعجبني طريقة معالجته ، وإني معجب كل الإعجاب بقوله على لساني :

«كلا يا أبنائي لا تعدوا حرفاً مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله ، فما هو بضائركم أن تجهلوه ، وهو مناف للصميم ، وإنه لباق في النفوس وإن زال من الطروس» (رجعة أبي العلاء ص ٢٠) ، وفي كتابك يا عقاد كثير من الآراء التي راقتني ، كما أن فيه آراء لست أدري من أين نسبتها إليّ ؟ وإن أقبح ما نسبته إليّ قولك : «أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي قد كان يغشاها للدرس ومراجعة المذهب ، فإن أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها على السماع ، بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين في بعض أيام العزلة كما يتم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت وإن تمت
إلى التي فاشربنها بغير نديم»

وهذا بهتان عظيم ، فليس في قولي هذا ما يؤيدك ، وليس [illegible] ما يؤدي بك إلى أن تقول ما تقول ، فقد وصفت [illegible] ذم أخرى ، وذلك في درعياتي وتشبيهاتي [illegible] عفا الله عنك . سمع العقاد هذه الكلمات ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وإنما اكتفى بأن نظر إلى الشيخ نظرة . ثم نادى الشيخ الأستاذ الراجكوتي فقال : يا عبد العزيز لقد كان كتابك حاوياً لكثير من المسائل المحققة ولا أعتب عليك إلا جرأة في نقد صديقنا صاحب ذكرى أبي العلاء ، فقد كنت أحب أن تكون كلماتك في نقده أرصن وأحكم . وأحب أن أختم الحديث عن كتابك بإعجابي بالفصل اللطيف الذي عنوانه «فلسفة أفكاره وآرائه في معتزله» على أن فيها أشياء موضع بحث ومناقشة .

ولما أتم الشيخ الجليل حديثه الطويل اعتذرت إليه فقال : لا عليك يا فتى ! فنحن إنما عشنا في سبيل العلم ، ومتنا في سبيله .

أسعد طلس

تعليق على :

«إصلاح التعليم فى مصر»

كان لهذا التقرير الذى أصدره حضرة صاحب المعالى وزير المعارف فرحة فى قلوب الآباء والأمهات ، إذ وجدوا فيه وعدا صريحا بأن دور العلم ستفتح أبوابها بالمجان للأطفال والمراهقين وكثير من البالغين ، حيث يجدون غذاء العقل ، وغذاء الجسم .

وكان له أيضا صداه بين الأفراد والجماعات من المصريين وغير المصريين ، فتناولوه بالدرس والنقد . ومهما اختلفت فيه الآراء ، فإنها تكاد تتفق على أنه «دستور تعليمى ثورى شامل» .

وقد يكون من اللياقة واللباقة معا ألا يتعرض مرءوس مثلى للتعليق على إنتاج رئيسه ، ولكن اعتقادى بأن معالى الوزير لا يأبى النقد الخالص ، ورأيه أن التقرير «يكون موضوعا للدرس والبحث ، وليتبين [illegible] جليا» يشجعنى على أن أساهم فى التعليق على هذا المشروع الإصلاحى .

وأول ما يلفت نظر القارئ ، هو أن معالى الوزير قد استقل بوضع هذا التقرير معتمدا على ما قرأ من مئات الكتب والتقريرات ، ومن بينها تقريرات وضعها المديرون العامون والمراقبون فى الوزارة . وقد جرت العادة فى البلاد التى سبقتنا فى الإصلاح أن يوكل وضع مثل هذا التقرير إلى لجان استشارية فنية ، تجتمع وتبحث المشكلات وتقدم مقترحاتها إلى الوزير الذى يقرها مبدئيا ثم يعرضها على البرلمان للمناقشة وإبداء الرأى . ولعل معالى وزيرنا لم يلجأ إلى هذه الطريقة التقليدية توفيرا للوقت ، ورغبة فى الإسراع بإخراج المشروع وإتاحة الفرصة لمناقشته فى البرلمان وخارجه . وقد أراد بهذا أن يكون عمل اللجان النقد التكميلى ، وأن تقوم بوضع الخطط التفصيلية التنفيذية لسياسة المشروع العامة .

التعليم الأولى والتعليم الابتدائى : عقد التقرير فصلا طويلا عن التعليم الإلزامى ، وذكر السبب فى إخفاق نظامه ، وأن عيبه يرجع إلى قصر المدة المخصصة له ، وهى سنتان ونصف على الحقيقة . ثم جاء بالإصلاح المنشود فجعل مدته سبع سنوات تبدأ فى تمام السنة السادسة ، وذلك على نظام اليوم الكامل . ويقترح التقرير أن يوجه هذا التعليم «وجهة عملية تلائم حاجة البيئة التى نشأ فيها التلميذ ، زراعية أو صناعية أو تجارية أو ملاحية . . وفى الوقت نفسه يثقف الناشئ تثقيفا عاما كافيا ليعينه على فهم الحياة العامة فى بلاده» . وهذا مثل عام للنظام الذى يجب أن يكون عليه التعليم الإلزامى فى مصر . ولكن [illegible] إلى جانب التعليم الأولى تعليم إبتدائى ، وهو تعليم يبدأ [illegible] الفترة المتأخرة من حياة التلميذ ، ويمتاز من [illegible] إعداد المدارس الثانوية ، ولذلك [illegible] اتجاها ثقافيا ، ويتعلم فيه التلميذ لغة أجنبية . وقد أشار التقرير إلى أن التعليم الثانوى سيكون فنيا وثقافيا ؛ فبجانب المدارس الثانوية المعروفة «تنشأ المدارس الثانوية الفنية التى تعد التلميذ إعدادا فنيا فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة» .

ولم يتعرض التقرير للصلة بين التعليم الأولى (الإلزامى) والتعليم الابتدائى ، وما إذا كان التعليم الابتدائى بصورته الحالية سيلغى ليحل محله التعليم الأولى الشعبى ، أى توحد مرحلة التعليم الأولى لجميع أبناء الشعب تحقيقا لمبدأ الديمقراطية ، أو أن النوعين من التعليم الأولى والابتدائى سيظلان قائمين جنبا لجنب . ولعلى لم أخطئ حين فهمت من التقرير أن كلا النوعين سيظل قائما . فإذا صح فهمى هذا واجهتنا أسئلة تحتاج إلى تفكير فى جوابها ، منها .

١ — ما أسباب استبقاء النظامين الأولى والابتدائى

ما دمنا قد جعلنا التعليم ديمقراطيا تتساوى فيه الفرص ، حتى تظهر المواهب الكامنة فى أبناء الشعب جميعهم ؟

٢ — أليس من الأصلح توحيد المرحلة الأولى من التعليم ، وإلغاء التعليم الابتدائى بصورته الحالية ، وإدماجه فى التعليم الأولى ، التعليم العام للشعب ؟ ! إن هذا النظام المزدوج من التعليم غير معروف فى الدول الديمقراطية ، بل لقد كان من نتائج تقرير هادو أن ألغى استعمال عبارة « التعليم الأولى » وأحل محلها عبارة « التعليم الابتدائى » . وعلى أية حال فالمشكلة ليست مشكلة ألفاظ وإنما هى مشكلة نوعين من التعليم لا ضرورة لبقائهما معا .

٣ — أمن الضرورى تعليم لغة أجنبية قبل البدء فى مرحلة التعليم الثانوى ؟

وجوابى عن هذا السؤال بالنفى . وهو جواب أثبتته التجارب الكثيرة . وتعرض له بتفصيل الدكتور وست ، وهو رجل أمضى حياته فى تجارب تعليم اللغة الإنجليزية بالهند ، واحتلت كتبه المحل الأول بين كتب هذه اللغة خارج إنجلترا . فهو يقول : « ونمكن أن نستخلص من موضوع كتابنا هذا (١) أنه يجب أن يجيد المتعلم قراءة لغته الوطنية قبل البدء فى تعليمه اللغة الأجنبية ، وليس هذا المبدأ قاصراً على الهند بل ينطبق على غيرها أيضا » .

الأزهر والمشروع : هذه نقطة شائكة لأنها ستخرج شيئا من اختصاص وزارة المعارف إلى اختصاص آخر ، ولكنى أومن بأنها من الخطورة والصلة بمشروع التعليم الذى ندرسه ، بحيث لا يصح أن أغفلها فى مقالى هذا .

فالأزهر جامعة دينية تعليمية ؛ فما معاهدها الخاصة ، الابتدائية والثانوية ، ولها كلياتها ، ومنها أقسام للتخصص وهى تعد أبناء الشعب — لا بناته — لوظائف هامة فى القضاء الشرعى ، والمحاماة ، والوعظ ، والإمامة ، والتدريس وغيره . ومن بين هذه الوظائف ما يحتفظ بطابعه الدينى المحض ، ومن بينها ما يتجه الاتجاه المدنى كالتدريس . وقد زاد الإقبال فى السنوات الأخيرة على قسم التخصص لإجازة التدريس ، فالتحق به من أتموا تعلمهم فى كلية اللغة العربية ، وعدد كبير ممن تخرجوا فى كليتى الشريعة وأصول الدين ، وهؤلاء يطلبون التوظف فى المدارس المدنية التى تشرف عليها وزارة المعارف أو تديرها . وهؤلاء لا يجدون السبيل الممهد للوظائف عادة كغيرهم من أبناء الدولة ممن ربتهم وأشرفت على إعدادهم وزارة المعارف . وهذا إنصاف وعدل . ولكنّ هناك شيئاً غير طبيعى فى تنوع الإعداد وتنوع الإشراف ، على حين أن المدرس الذى يُراد إعداده نوع واحد . وهذه مشكلة طال تاريخها .

وكنت أود مخلصاً أن يتعرض لها هذا التقرير الذى سيكون — إن شاء الله — دستور التعليم فى مصر ، فتحلها حلاً مرضياً لمصلحة الله والوطن .

تعليم الكبار وتعليم الأميين : وعقد التقرير فصلا فيما تعليم الكبار وهو ما يسمى بالإنجليزية Adult education وذلك لأن التعليم لا ينتهى بمغادرة التلميذ المدرسة — الأولية مثلا — ولكن تتاح له الفرص المنظمة للدرس والتثقيف والتهذيب ، حتى يتسع أفقه ، وتزداد معارفه . وأشار التقرير إلى أن فى وزارة الشئون الاجتماعية اتجاها لتحقيق هذا الغرض ، وأن وزارة المعارف ترحب بهذا الاتجاه ، وهى مستعدة لتقديم « كل معونة فنية فى تنظيم هذا التعليم ووضع خططه وبرامجه ، وملاحظة تنفيذ هذه الخطط والبرامج . . » . وهذه مأثرة أخرى من مآثر هذا المشروع ، لأن التعليم الناقص قد يكون أخطر على الهيئة الاجتماعية والفرد من الجهل .

وهنا يجدر بى أن أشير إلى أن فى مصر نسبة غير صغيرة من الأميين الكبار . وهؤلاء — وإن كانوا سينقرضون مع السنين — يتوقون إلى التعليم ، حتى ولو اقتصر تعلمهم على القراءة والكتابة . على أن فى تعلم

(١) P. 13, learning to Read a Foreign language

الكبار من آباء وأمهات إعداداً للجو المنزلي الصالح الذي يجد فيه المتعلم الصغير من والديه إرشاداً وتشجيعاً وتقديراً للتعليم .

هل تسمح مواردنا بتنفيذ المشروع ؟

نشرت الثقافة في عددها ٢٥٩ مقالا تحت عنوان « منطق الأرقام » قدر فيه كاتبه أن تنفيذ ما جاء في تقرير التعليم من إصلاح ، وما تحتاج إليه البلاد في الشئون الصحية يحتاج نحواً من ٦٥ مليونا من الجنيهات سنويا ، أي ما يعادل ميزانيتنا الحالية .

وسواء أصح هذا التقدير أم لا ، فهنالك حقيقة ثابتة وهي أن مواردنا كما هي الآن لا تسمح بتنفيذ ما جاء في التقرير من إصلاح منشود ، ولم يتعرض التقرير للوسائل العملية التي يدبر بها مال التعليم . غير أنه ذكر أنه « قد أجمعت هيئات التعليم ورجال التربية واللجان الدولية التي تشتغل بشئون التربية في أمريكا ، وبعد الاطلاع على ... أن العالم بجميع ما فيه من موارد طبيعية ... لاستغلال هذه الموارد والانتفاع بها ، وما يقتضيه ذلك من فرص التعليم التي تمكن من هذا كله ، لا ينبغي أن تستأثر بها أمة دون أمة ، أو أن تستبد بها طبقة دون طبقة ، وإنما هو حق الجميع ، ولكل فرد في كل أمة أن يطالب بحظه منه ، كما أن لكل أمة في الأرض أن تطلب حظ أبنائها منه . واعتماداً على هذا الرأي قرروا ضرورة التزام الأمم جميعا بميثاق دولي أن تتعاون على تمكين جميع الطبقات من التعليم على مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص ؛ حتى لو أن أمة من الأمم المشتركة في هذا الميثاق لم تجد من مواردها الطبيعية الخاصة أو من طاقتها المالية ما يعينها على تحقيق هذا المبدأ ، كان فرضاً على هذه الدول الغنية بمواردها أن تقدم لها المعونة الكافية لتحقيقه . ويشترط لذلك طبعا أن تبذل الأمة ، التي تطلب المعونة ، أقصى جهدها وما تبلغه طاقتها لتحقيق هذا المبدأ بمواردها الخاصة . فذلك واجبها الأول قبل أن يكون واجب الدول الأخرى » .

وهذا النص واضح في أنه إذا ما عجزت موارد مصر عن تنفيذ سياستها التعليمية فإن هناك مالا احتياطيا نلجأ إليه عند الدول الغنية . ولكن أي ضمان يكفل لنا تحقيق هذه الآمال التي خلقتها الحرب ، والتي لم تخرج عن حيز البحث والتفكير ؟ هذا إلى أن واجبنا يقضي بأن نبذل نحن مجهودنا المالي ضمن مواردنا الخاصة لتحقيق مثل هذا المشروع .

ولقد اتجه معالي وزير المعارف اتجاها عمليا في البدء بتدبير المال اللازم للتعليم . وكان من مظاهر هذا الاتجاه ما حدث في مأدبة معالي وزير المالية لرجال المال بعد تغطية القرض الوطني . فقد اقترح دولة صدقي باشا على معالي وزير المالية أن يعقد قرضا لتحسين حال الفلاح وتنفيذ المشروعات[1] التي تحتاج إليها البلاد بعد الحرب ، « وهنا قال معالي نجيب الهلالي باشا إنه يرجو أن تخصص أموال القرض الجديد الذي يقترحه دولة صدقي باشا لوزارة المعارف لتنفقه على التعليم » ، وإذا نجح هذا الاقتراح وأمكن عقد مثل هذا القرض كان لنا أيضا أن نتساءل : أمن المصلحة عقد قرض لإنفاقه في إصلاح التعليم وأوجه أخرى ضرورية أم تقييد مشروعاتنا الإصلاحية بميزانيتنا المحدودة ؟

إن التعليم تجارة رابحة . وليس عقد القروض للقيام بالمشروعات الإصلاحية أمراً جديداً في تاريخ الأمم ، فكل الدول — ومن بينها مصر — تعقد قروضا لتنفيذ المشروعات العامة التي تعجز ميزانيتها عن تنفيذها . وقد ثبت بالتجارب والتاريخ أن التعليم يزيد قوة الإنتاج ، وبه يمكن فتح أبواب لموارد من الثروة قد أهملها الجهل ؛ وما أكثر هذه الموارد في مصر . وقد يكون من المناسب أن أشير هنا إلى أنه من الضروري أن تقوم بجانب المدارس والمعاهد الفنية مؤسسات صناعية وزراعية حكومية وحرة ، يمكن أن

(١) الأهرام في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣

تعمل فيها الجماعات المدربة التي تخرجت في هذه المدارس والمعاهد الفنية ؛ وبهذا يكون تطورنا الاقتصادي متمشياً مع تطورنا التعليمي . غير أنه يجب ألا نتوقع زيادة الإنتاج العام في الدولة بحيث يكافئ نفقات التعليم السنوية ، قبل مضي جيل أو جيلين .

هـذا إذا لجأنا إلى عقد القروض . وإذا لم يكن هذا ممكناً ، فهناك اقتراحات قد يعاون تحقيقها على تنفيذ هذا المشروع التعليمي ، ولو تنفيذاً بطيئاً ، نذكر منها :

١ — أن تنهج وزارة المعارف نهج وزارة الصحة في قبول تبرع الأفراد والجماعات بالأرض والمال لإنشاء مجموعات صحية ، فتشجع وزارة المعارف الجمهور وتقبل منه مثل هذه التبرعات لإنشاء المدارس الريفية والثانوية الفنية .

٢ — أن وزارة المعارف في الممالك الغربية لا تصرف للتلاميذ الكتب المقررة والأدوات المدرسية التي تصرفها وزارة المعارف هنا . فإذا أعفي الآباء من المصاريف المدرسية فلا أقل من أن يشتروا لأولادهم ما يحتاجون إليه من كتب وأدوات مدرسية ؛ وهذا النظام يوفر على الوزارة قدراً من المال لا بأس به .

٣ — أن توجه المدارس الفنية توجيهاً تجارياً إلى جانب مهمتها التعليمية ؛ فتباع منتجاتها الزراعية والتجارية لحساب وزارة المعارف . ولا شك أن أثمان هذه المنتجات سيغطي جزءاً كبيراً من نفقات هذه المدارس .

٤ — أن تبدأ وزارة المعارف بتنفيذ هـذا المشروع تنفيذاً جزئياً عملياً — كتجربة — في منطقة من مناطق القطر . ولهذه التجربة نتيجتها المزدوجة ، وهي : أولا أنها تعطينا فكرة صحيحة صادقة عن مقدار ما يحتاج إليه المشروع من مال عند تعميمه ؛ وثانيا نتعلم من الأخطاء التي قد نقع فيها أثناء التجربة . وقد تكون التجربة أسلم طريقة لتنفيذ هذا المشروع الضخم .

وليس في التقرير ما يحتم التعجيل بالتنفيذ ، فإنه يشير[1] إلى أن أعضاء البرلمان الإنجليزي لما عرضت عليهم الإصلاحات التعليمية الأخيرة « قالوا : إن البرلمان لا يمكن أن يتقيد منذ الآن عما سيكون في المستقبل ، ولكنه يوافق مبدئياً على المضي في الإعداد ، والإصلاح على أساس السياسة العامة المقررة . وكلما تمت مرحلة من مراحل الإعداد وأصبحت ممكنة التنفيذ طلب من البرلمان إقرار الاعتمادات اللازمة لها . ولكن ذلك لا يمنع إعداد التشريعات وإقرارها منذ البدء » .

والتقرير الذي أصدره معالي الوزير هو من نوع هذه الإصلاحات . فهو مشروع لسياسة التعليم عامة يعرضه على نواب الأمة وشيوخها ليتيح لهم فرصة لم تتح من قبل « لبحث حالة التعليم عامة . فلا يقتصر البحث فيها على نوع دون نوع ، ولا عيب دون عيب . وبذلك أيضا تستطيع مصر أن ترسم للتعليم منهجا عاما على علم بأغراضه وأسسه وأهدافه البعيدة وأغراضه العامة » .

عبد العزيز عبد المجيد

(١) صفحة ١٢ من التقرير الذي نحن بصدده.

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة أشهر
مم
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١٥ مليما

أدب الأسبوع ...

« هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي ... ... »

اقرأ ... — الحصان والجوكي ! — وبعرفها الأدب ! — المختار — خطة !

اقرأ ...

أتمت سلسلة « اقرأ » التي تصدرها مكتبة المعارف ، سنةً من عمرها المديد إن شاء الله ، أصدرتْ فيها اثني عشر كتاباً لاثني عشر كاتباً من خيرة كتابنا وأذيعهم شهرة وأدناهم إلى قلوب القراء ، وأشدهم أثراً في قلوبهم وعقولهم ؛ وإنه لحقٌّ علينا في هذه المناسبة أن نحيّي هذه « المجلة » الناشئة ونرجو لها اطراد التقدم على النهج الذي أراده ورسمه لها القائمون عليها من أهل الفن والأدب الرفيع ، فهي على أيّ أحوالها ثروة أدبية مربحة ، ما دام الغرض الأول من نشرها تحبيب الكتاب إلى قارئه ، واجتذاب طائفة من أهل الفراغ والبطالة إلى أن يشغلوا فراغهم بالقراءة التي تزاوج بين المتعة والتسلية ومحاربة [illegible] الفراغ ، ثم تقريب طائفة من حقائق العلم والفن الخالصة إلى طائفة من القراء ليس لهم فيها تخصُّص يعينهم على الرجوع إليها في مصادرها الأولى من مراجع البحث ومطوّلات العلوم والفنون . وإذ كان هذا هو الغرض الأول من نشر هذه السلسلة ، فليس من حق — في هذه الناحية — أن أعرض لتفصيل الرأي فيما أخرجته لقرائها في ذلك العام المنصرم ، فإن أول ما نشكو منه في هذا البلد هو انصراف المتعلمين عن القراءة النافعة ، فأيّما كاتب أو ناشر عمل عملاً لاجتثاث هذه العلة فهو مشكور على ما عمل في جملته ، لا سبيل للناقد عليه إلا فيما يقول من قول أو يرى من رأي أو يدعو من دعوة تتناول الأمة في دينها أو في كرامتها الوطنية أو في أخلاقها العامة .

الحصان والجوكي !

ودعتْ سلسلة « اقرأ » جمهور قرائها — وكُتّابها — إلى استفتاء عام — لمناسبة دخولها في سنتها الثانية — وستَفرق بينهم جائزة ؛ أما الاستفتاء فهو : أيُّ الكتب التي أصدرتها في السنة الماضية — ما عدا الكتب الثلاثة الأولى وهي من وضع أعضاء اللجنة — ينال رضا الأكثرية من القراء ؟ وأما الجائزة فهي ٧٠ جنيها لمؤلف الكتاب الفائز ، و ٣٠ للقارئ الذي يفوز بالاقتراع من بين القراء الذين اختاروا ذلك الكتاب ! ...

... وتمنيتُ حين قرأتُ هذا الاستفتاء الطريف لو كنتُ — في السنة الماضية — كاتباً من كتاب هذه السلسلة ، إذن لكان لي اليوم مطمع في أن أربح سبعين جنيها ، وإنها لمَال !

قال لي صاحبي : إن لم تكن كاتباً يفوز بالسبعين فإنك تستطيع أن تكون القارئ الذي يطمع في الثلاثين ، و[illegible] أن ترى وتحكم فلا تعدو الحقّ فيما تحكم ! ...

قلت : هيهات ! ليس من ذلك عجبي وما أعني ، وإنما [illegible] الجانب السلبي والجانب الإيجابي في هذا الاستفتاء [illegible] مؤلف قد فرغ مما كان عليه من واجب ، [illegible] كتاب ثم طُبع وذاع منذ أشهر ، وإنه لجالس إلى مكتبه في داره لا يفكر في شيء مما كان حين يدق عليه ساعي البريد بابه في غفلته ليدفع إليه سبعين جنيها هي جائزة قرائه ...

وهؤلاء آلاف من القراء يصطرعون على الرأي في الكتاب الأول ، وإن لكل منهم مطمعاً في الثلاثين قد يحمله على أن يكون له تسعة آراء لا رأيٌ واحد ، فيرى كلَّ كتاب من التسعة خيرَ كتاب ، ليضمن أن يكون اسمه في كل اقتراع ؛ ثم تكون نتيجة ذلك كله أن يحصل على الثلاثين قارئٌ واحد من بين هذه الآلاف ...

أتراهُم في هذه المباراة قد سبّقوا بين المؤلفين أو بين القراء ؟

وضحك صاحبي وقال : أرأيتَ « الجوكي » على فرسه في حلبة السباق قد لوَى معرفة الحصان على كفه وإن السوط ليرتمي به في كل عثرة وفي كل حفرة وعلى كل

منحدر وثنيّة، وإن أنفاسه المبهورة لتتكاثف عرقاً على جبينه وتتلهب دماً في خديه، ومازال الحصان يعدو به حتى يبلغ غايته فينزل عنه... أرأيتَ هذا «الجوكي» مرة في حلبة السباق على ما وصفتُ لك من حاله؟ كم يناله من ربح هذا السباق وكم يناله النظارة وكانوا على كراسيهم هادئين يرقبون بعيونهم ولا يكادون يتحركون؟...

قلتُ: فأنت ترى القارئ في هذا الاستفتاء هو «الجوكي»: عليه أن يبذل الجهد ولغيره الجائزة؟

قال: لا، ليس الفرس والجوكي إلا المؤلفَ وقارئه، وإنما الربح للآخرين، ليس للنظارة وإنما هو لباعة التذاكر على باب السباق!!

قلت: لم أفهم بعد!

قال: هو ذاك، ولو قد فهمتَ لسألتَ عنك سؤالاً آخر... ... ...

ديمقراطية الأدب!

... وسألتُ نفسي وقد مضى [illegible] في حيرة: ما تنفع هذا الاستفتاء المؤلف، والقارئ، وللأدب العام؟... وما تنفع السباق الفرس، والجوكي، وللآخرين والأخريات؟..

أما الناشر فإنه ليدري، إنه ليعرف كم طبع من كل كتاب وكم باع، وإن له «عدّاده» الذي يعرف به على التحديد أو على التقريب أي الكتب التي أصدرها قد نال رضا الأكثرية من القراء؟

وأما المؤلف والقارئ فلستُ أدري ماذا ينفعهما من جواب هذا الاستفتاء، إن كان الذي ينفعهما غير الربح والجائزة!...

... إني لأخشى أن ننتهي من أمثال هذه التباريات في الأدب — إن كان المقصود منها شيئاً غير الإعلان — إلى نتيجة لا يرتفع معها قدره؛ فلم يكن ميزان الأدب في جيل من الناس هو حكم الرأي العام؛ فإنما حقيقة الأدب الرفيع أن يكون إلهاماً ووحياً خالصاً تتنزل به الحكمة على الطبقة الممتازة من أهل الفكر والبيان لتوحي بهم وتعلو وترفع الشعب فوق قدره وتسمو بوجدانه ونفسه؛ فإخضاعه لحكم العامة وأشباه العامة من القراء بأمثال هذه التباريات، نزولٌ به عن موضعه ونزولٌ بأهله عن مكانتهم. بل لعل أرفع الأدب مكاناً وأعلاه موضعاً هو أبعده عن رضا العامة؛ ولو قد جعلنا حكم القراء هو الميزان وهو الحكم لكان ذلك حرياً بأن يحمل طائفة من أصحاب الأقلام على التماس أسباب النجاح بما يزدلفون إلى العامة من فنون القول التي تطرب لها نفوسهم ويجدون لها رَوْحاً في أفئدتهم ونشاطاً في أبدانهم وفورة في دمهم، وتقود الجماهيرُ الأدباءَ وكان حق الأدباء أن تكون لهم القيادة... ..

... وعاد صاحبي بعد فترة، فسألته وسبقتُ إلى [illegible]، وعادت إليه ابتسامته عريضة منبسطة وهو يقول: ما أسرع ما انتقلتَ يا صديق من رأي إلى رأي؛ لم أسألك [illegible] لأعرف جوابه ولا أشك أنك تعرفه [illegible] أردت أن أسأل: أيكون ذلك لوناً [illegible] نصطنع أساليبها في كل ما نعالج من فنون الحياة؛ فنحن نريد الأدب ديمقراطياً يخضع للرأي العام ويتكيف كيفه ويوافق هواه؟...

قلت: وَي! أهذه ديمقراطية الأدب فيما تحسب؟... ألا إن أساس الديمقراطية هو أن تحاول أبداً أن ترفع الشعب لا أن تنزل به؛ فليس الأدب الديمقراطي هو ما تزنه بميزان العامة، ولكنه هو ما ينشئه الأديب ليسمو بعامة الشعب إلى حقيقة الإنسانية العالية ويرتفع بهم إلى أعلى حد من الكمال الممكن.

المختار:

وأصدرت سلسلة «المختار» من مجلة «ريدرز دايجست» أربعة أجزاء، منذ أصدرت طبعتها العربية، وإنه لفرضٌ علينا وقد تحدثنا عن سلسلة «اقرأ» أن نتحدث عن «المختار»، لا نتحدث عما يتناوله من موضوعات العلم

والفن ، ولكننا نتحدث عن ... أو ذلك النوع من « الطالعات » فى أدب الجيل .

وإنما ربطنا بين الحديث عن « اقرأ » و « المختار » لأن ثمة تشابها ما فى الشكل العام وفى الأثر والنتيجة يقتضى هذا الربط على بُعد ما بينهما فى الموضوع والوِحدة ... ، فكلاهما نوعٌ جديد من الطالعات الدورية ليس من الكتاب ولا من المجلة وإن كان أدنى شبها إليهما .

وقد أقبل القراء على هذا النوع إقبالاً يدعو الباحث إلى تعرُّف أسبابه وما قد يكون له من أثر ونتيجة ؛ أما السبب فيما أرى فهو مستمد من روح العصر الذى هوَّن على الناس أفراداً وأسراً أن يهجروا الجلوس إلى المائدة فى البيت الهيِّن ليتناولوا طعامهم ماشين أو راكبين أو واقفين يقضمون « الشطائر » وهم يتبادلون الرأى فى شئون العلم أو فى شئون المال ، وكذلك هان عليهم أن يهجروا الكتاب والمجلة إلى هذه الطالعات يتزوَّدون منها على تزوّدهم ماشين أو راكبين أو واقفين فى انتظار الترام !

ذلك هو السبب ؛ فما نتيجته وأثره ؟

أما أثره فمثل الربض المعروض من أهل المدينة من سبب علته ، تعرف السبب والنتيجة [illegible] مَعِدَاتُ الناس فى المدينة وساء هضمهم واختلَّ نظامهم العصبى من أكل الشطائر ماشين أو راكبين أو واقفين حيث كانوا ؛ فما بُدٌّ أن تفسد « مَعِداتهم الأدبية » إن اقتصر القراء على هذا النوع الواحد من الغذاء الأدبى يتناولونه فى القطار أو فى السيارة أو فى الترام فلا يجلسون إلى كتاب فى مكان هادئ إلا متأهبين لامتحان أو لإنشاء بحث ؛ كما لا يجلسون إلى مائدتهم يوماً فى الدار للطعام إلا داعين أو مدعوِّين أو محتفلين بعيد !

ولو أن الأمر مضى على هذا الوجه لجاء اليوم القريب الذى يختفى فيه الكتاب من سوق الأدب فلا نبقى إلا هذه « الشطائر السوقية » متعددة الألوان مختلفة المذاق متنوِّعة الفنون يعرضها العارضون على كل عين وراء الزجاج ، تتناولها الأبصار والأيدى ، وما فيها غذاءٌ ولا دسم ولا شبع من جوع ! ويؤلِّف المؤلِّف العظيم — كما يُذبَح الديك الرومى — فلا يقرؤه إلا قارئٌ واحد ليلخّصه فى بضع صفحات من مجلة يقرؤها مئات الألوف واقفين أو ماشين أو راكبين ، كما يوزِّع بياع الشطائر لحم الديك الرومىّ فى بضعة أيام على الألوف من الآكلين يقول كل واحد منهم : لقد أكلت الديك الرومى ؛ وما أكل إلا شطيرة !

ويعود الكتاب ذِكرى ، ويصبح الأدب مَسلاة ، ويصير الأدباء أُجَراء عند باعة الشطائر ! !

خطبة !

قرأت فى جريدة الأهرام :

« فى حفل بهيج تمت خطبة فلان بكلية العلوم لزميلته الآنسة المهذبة فلانة كريمة فلان بك ... »

وهو إعلان مأجور — كما هو واضح — دَفَع عنه ناشرهُ ، أو ناشرته ، الأجرةَ المقررة وكُتب كما أراد أن يكتب لم يَزِد فيه أحدٌ حرفا غير ما أراد أن يَنشر ؛ ولكن أىّ شىء فى هذا ؟ ...

... فيه أن طالبا بكلية العلوم خطب « زميلته » ... وأى شىء فى هذا أيضا ؟

... لا شىء ! فإنه ليسرّ ويبهج حقا أن يكون هذا مصير الزملاء والزميلات فى كل كلية من كليات الجامعة ، وإنه ليقطع ألسنة ما تزال تتطاول ... ، ولكنى الذى أسأل عنه : أى الاثنين ناشر هذا الإعلان ؟ وأيهما خطب « زميله » ؟ ولِمَن نُشر هذا الإعلان : ألهما وحدهما ؟ أم لسائر الزملاء والزميلات ؟ أم للأهل والأقارب وفلان بك والد الخطيبة الزميلة ؟

وحاولتُ أن أعرف الجواب فما بلغت ، ولكنى إلى ذلك مسرور ، مسرور جدا ، وكان أتمّ لسرورى لو أن هذا الإعلان البهيج كان على الصورة الآتية :

« يعلن فلان الطالب بكلية العلوم إلى زملائه وزميلاته بالكلية ، أن زميلته فلانة قد صارت منذ اليوم خطيبته ، فلا يتعقّبهما أحدٌ منفردَين أو مجتمعين فى ظلال الشجر ، ولا يجعلهما أحد بعد اليوم موضع الحديث والسمر ! ! »

« قاف »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر